الاتجاهات الحديثة

للفلسفة الروحية

من أغرب ظواهر هذا العصر ، ما نراه من انصراف علماء أوربا وأمريكا إلى المباحث الروحية بجميع فروعها انصرافاً آخذاً بمجامع قلوبهم، مالكاً عليهم مسارب أحاسيسهم؛ وهذه الظاهرة تدلنا — سواء أكانت خالصة للعلم أم غير خالصة — على أن ما أصاب العالم من أزمات نفسية واقتصادية كان له شأنه البالغ فى هذا الاتجاه الجديد .

فها نحن أولاء نرى أمثال : فلامريون ، ودورويل ، وتكنسون وغيرهم من فحول العلماء يعملون ليل نهار، وفى تقدم مستمر، على النهج بهذه العلوم نهجاً علمياً حديثاً يقوم على قواعد ثابتة مقررة ، بل لا يكتفون بما يبذلون من جهود فردية، وإنما يؤلفون الجماعات ويعقدون المؤتمرات يتلو بعضها بعضاً فى سبيل تحقيق الغاية التى تهيمن على عقولهم ، وهى البحث عن حقيقة « الانسان الكامل » « أو «السوبرمان Superman»؛ الذى يقول عنه الأستاذ الكبير (دريش Drisch) الرئيس الفخرى لمؤتمر العلوم النفسية المنعقد فى عاصمة اليونان عام ١٩٣٠ ما نصه :

« إن على المنقطعين لدراسة علوم ما وراء الظاهرات الروحية ، واجبات فى أعناقهم تأديتها لسعادة البشرية ، وأهم هذه الواجبات — فى نظرى — أن يوجهوا قواهم لدراسة وتحقيق نظريتهم، بل يجب على جميع المشتغلين بسائر العلوم ، أن يعنوا بدراسة هذا البحث دراسة تمكنهم من الوقوف على العلاقة الوثيقة لعلومهم بهذا المبحث الجليل ، الذى له أكبر الصلة بسعادة الإنسانية عامة » .

فهذه النظرية التى يقوم علماء أوربا وأمريكا الآن ببحثها وتمحيصها ، ويعنون بتتبعها وتتبع ما شابهها من بحوث ومعارف، تجعلنا نغتبط كل الاغتباط ، لأن فى العناية بها اتجاهاً إلى الشرق مبعث الحكمة والنور ، والتماساً لهدايته ووحيه، وهو مستقرهما منذ الأزل .

على أن هذه الظاهرة إذا سرتنا حقيقة ، فإنها فى الوقت نفسه تثير فى نفوسنا شيئاً من الألم، لتهاوننا — ونحن الأصل — فيما هو بشأننا أدخل وبصلاتنا أعلق ؛ لكن يعزينا عن ذلك أنا كنا السابقين .

فهذه «السوبرمان» على حد التعبير الانجليزى، والتى يزعم تلاميذ «نيتشه» أنه أول من حققها ونشر استعمالها ، إنما هى مأخوذة من الفلسفة الهندية القديمة ، وبخاصة من نظرية «النيرفانا» .

ومن قبله أيضاً استعملها ابن العربي (المتوفى عام ٦٣٨ هـ - ١٢٤٠ م) وعبدالكريم الجيلي (المتوفى عام ٨٢٦ هـ ١٤٢٣م) في كتابه « الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل » وهو عمدة المتصوفين وإمام الباحثين والسالكين؛ لأنه لب الحقيقة وناموس الطريقة في اصطلاحاتهم. لكن الجيلي يرى في الإنسان الكامل رأياً نعتقده أصح وأسد من رأي نيشته وذلك لما يأتي:

يرى نيشته في طريقة الوصول إلى تحقيق غايته، ضرورة هدم جميع النظم والعادات، والأخلاق والآداب الموجودة، ليبنى على أنقاضها نظماً وقواعد أخرى جديدة يأخذ بسلوكها قسم كبير من ذوي المواهب الخاصة حتى يصلوا إلى درجة السوبرمان، ومن ثم تتاح لهم فرصة أخذ بقية البشر بها وقيادتهم بواسطتها إلى ما يتخيله من سعادة وخير.

وكأن نقاد العصر الحديث - وعلى رأسهم برناردشو - رأوا أن الطريق التي رسمها تصورها نيتشه عقيمة غير محققة، لأنها - في نظرهم - كل لا يجزأ، ولأنها وقف على الإنسان المنتظر، ابن الجيل القادم، الذي يخرج من ظهر الجيل الحاضر.

وكذلك يأبى الثيوصوفيون - وعلى رأسهم « آني بيزانت » - أن يتركوا هذه الفرصة تفلت من أيديهم دون أن يدلوا بدلوهم في الدلاء. فهم يضعون شروطاً لحصول هذا الكمال الإنساني الذي يرونه لازمة من أكبر لوازم الحياة، والذي لا يتحقق بغير تقمص الأرواح بالأفراد.

وعللوا معتقدهم ذلك «بأن الحياة والوجدان والكون ليست إلا مظاهر أو تجليات من مظاهر الله وتجلياته؛ وهو واجب الوجود لذاته لا يدرك الانسان كنهه، وهو أزلي؛ أما الكون فزائل يبقى ملايين من السنين ثم يزول؛ ومن ثم يعود الخالق إلى الظهور - بعد أن كان كامناً ظاهراً معاً - فيخلق كوناً آخر، وهكذا يتجدد الخلق والزوال؛ ويصدر الكون عنه بواسطة اتحاد الهيولى بالجوهر؛ وبعبارة أخرى باندماج السلب بالإيجاب، وليس لأنهما منفصلان عن بعضهما البعض؛ بل لأنهما مفترقان افتراق كل من القطبين الإيجابي والسلبي عن بعضهما في المغناطيس، حال أنهما موجودان في كل ذرة من ذراته »..... و«... تكون مدة حياة الإنسان في هذه الدنيا متصلة بالطبيعة الأرضية فيه، وذلك بواسطة العقل الذي هو قسمان: قسم عال، وآخر عادي؛ فالعالي أو العلوي يصعد إلى أعلى، والعادي أو السفلي يطلب الأسفل أي يطلب الحياة؛ وذلك لأنه ممتزج بالعواطف ».

و«عند الموت تطلب الروح والنفس والعقل الانفصال عن الطبيعة الدنيا للانسان، في حين يعود العقل السفلي إلى مصدره - وهو العقل العلوي - يحمل معه ما تعلمه مدة حلول النفس في الجسد؛ وتظل هذا الثلاث - الروح والنفس والعقل - مطمئنة إلى ما أفاده العقل من الخبرة في حال من الوجدان مريحة مستقلة عن الجسم الدنيوي وعن كل ما يتصل به من حدود وأوضاع وعوائق مختلفة. وهذه حال تظل وفقاً لدرجة الارتقاء التي يبلغها الانسان أثناء مقامه في الأرض؛ ثم تنتهي برجوع هذا الوجدان إلى الجسم، أي بتقمصه أو حلوله في جسم ثان وهكذا» (١).

1— An article In Theosophism , By Annie Besant

أما الجيلى وابن العربى ، وبعبارة أشمل ، أما الصوفيون فيرون أن الطريق إلى تحقيق الكمال تكون بالتخلص من الشهوات الدنية، وإنكار الذات الإنسانية، والتخلص من الغلف الجسدانية بالحط من شأن الجسد، والعمل على الحقق بآداب خاصة وسلوك خاص، فى تزكية النفس وتطهير الباطن. وعندهم أن الإنسان لايصل إلى الكمال إلا بمعرفة الحق سبحانه وتعالى ، والعمل على استكناه حقائق الكون، وفهم أسرار الوجود، والزهد فى ألوان الحياة . والكمال درجات، تستلزم كل منها مراتب خاصة لبلوغها، وقد شرحها العلامة القشيرى فى رسالته ، وهى طويلة ، فليرجع إليها من شاء .

والذى يهمنا هنا أن نثبت أن الجيلى أول من تكلم فى هذه النظرية بعد ابن عربى، وأول من عرف بوقف نفسه عليها . ويعتبر كتابه «الانسان الكامل» حجة فى هذا الموضوع، وإن كان الشراح مجمعين على أن المقصود بالانسان الكامل عند الجيلى هو سيد البشرية على الاطلاق « محمد بن عبدالله »، وهذا حق لامرية فيه .

والانسان الكامل فى نظر أبى يزيد البسطامى (المتوفى عام ٨٥٨هـ - ١٤٥٤م) هو «من غمرته صفات الله، وأصبح غير واع لها ، أى دخل فى حالة الفناء » ، وهى فى النهاية عنده درجة لاتتحقق إلا للأنبياء والأولياء ومن فى حكمهم . والكلام فى هذه النقطة دقيق جداً، ويحتاج إلى شىء من الإسهاب والشرح كثير ، فلعلنا نوفق للكتابة عنها بعد .

وقبل أن نختتم كلمتنا العجلى نعطى القارىء فكرة « الجيلى» من الأبيات الآتية، وهى من قصيدته العينية النادرة الوجود . وقد عثر عليها المستشرق العظيم، الأستاذ نيكلسون فى نسخة بالمتحف البريطانى، فأودعها كتابه[1] «دراسات فى التصوف الإسلامى»:

حقائق ذات فى مراتب حقه ... تسمى باسم الخلق والحق واسع
وفى فيه من روحى نفخت كفاية ... هل الروح إلا عينه يا منازع
فيا أحدى الذات فى عين كثرة ... ويا واحد الأشياء ذاتك شائع
تجليت فى الأشياء حين خلقتها ... فها هى ميطت عنك فيها البراقع
قطعت الورى من ذات نفسك قطعة ... ولم تكن موصولا ولا فصل قاطع

والخلاصة : هل يقدر لهذا الصراع القائم الآن بين علماء أوربا وأمريكا أن يستمر ويشتد حتى يهتدوا إلى الحقيقة المطمورة فى أرض الشرق وكنوزه ؟ ذلك ما سيكشف لنا القدر عنه، ووقتئذ تخفق راية السلام حقاً ، ويتحقق دستور المحبة والإخاء والمساواة .

1— STUDIES IN ISLAMIC MYSTICISM . P. 145